المحاضرة السادسة: تيمات القصة الجزائرية

أوّلا: نشأة القصة الجزائرية

نشأت القصة الجزائرية على يد رجال الإصلاح ومقاومة المحتل مثل: محمد بن العابد الجلالي، ومحمد سعيد الزهراوي. وكانت تسمى القصة الإصلاحية حيث تتناول القيم التي يجب أن تسود المجتمع وضرورة التخلص من المحتل، وأهمية الحرية لكن التطور والنضج الحقيقي كان على يد جيل الثورة الأدبي، حيث عرفت الحياة الأدبية والثقافية في الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية (1944) تطورا ملحوظا، فقد كثر عدد الكتاب ورجع بعضهم إلى أرض الوطن، وتخرج بعضهم الآخر من معاهد جمعية علماء المسلمين الجزائريين، كما شهدت هذه المرحلة استمرار إرسال البعثات العلمية إلى البلاد العربية وخاصة إلى تونس والمغرب الأقصى، مما نتج عنه ازدهار طرأ على مختلف الأنواع الأدبية إثر تأسيس النوادي والجمعيات الثقافية، وانتشار الصحف اليومية والمجلات الدورية التي تعنى بالإبداع.

وتعد قيام حرب التحرير الوطنية الكبرى في أول نوفمبر عام 1954 من أهم عوامل تطور الأدب الجزائري المعاصر سواء على صعيد الشكل أو المضمون، والتحقت القصة بدورها بالجبل تعايش الثورة وتكتب عنها، ومن القصاص من تفرغ للثورة، وتخصص فيها، ولم يكتب عن أي موضوع سواها مثل: عثمان سعدي وعبد الله ركيبي، وفاضل المسعودي ومحمد صالح الصديق.

لارتباط القصة بالثورة الجزائرية أثران: أحدهما ايجابي: ففي الشكل حاول القصاصون استعارة أشكال فنية مختلفة من الآداب العربية والأجنبية لمواكبة التعبير عن الثورة، وعلى مستوى المضمون أثرت الثورة التحريرية في مضمون القصة، بما لا يقل على أثرها في الشكل، فقد تقلصت الموضوعات الإصلاحية وخلفتها موضوعات جديدة استلهمت الواقع، فكثر وصف صمود الشعب الجزائري أمام قوى المستعمر وتصوير بطولات المناضلين والتعبير عن الحياة الاجتماعية الجديدة.

أما التأثير السلبي فقد اهتم القاص الجزائري اهتماما كبيرا بتصوير المعارك، وبدافع وطني يمليه إحساسه بالواجب، والتزام بتصوير كفاح الشعب، وقد أدى هذا الالتزام إلى بروز بعض الكتابات الضعيفة، لغياب التركيز أو عنصر التشويق

كما نشأت القصة الجزائرية متأخرة عن القصة في المشرق العربي لظروف تتصل بالثقافة العربية وبالأدباء أنفسهم وبثقافتهم الخاصة وتكوينهم الفكري الذي ارتبط بالتراث ارتباطا كليا منذ البدايات الأولى للنهضة الأدبية في الجزائر وارتباط الأدب بالحركة الإصلاحية، بدعوتها ومبادئها وأهدافها وهي في مجملها تستند إلى الدين والإصلاح وتتسم بالمحافظة في النظرة والرؤية، ومن ثم فإن الأدباء الذين اعتنقوا هذه الفكرة حصروا أنفسهم في نطاق ضيق لم يستطيعوا الخروج عنه وبالتالي لم يحاولوا أن يجربوا في مجال الفنون الأدبية الجديدة مثل القصة القصيرة، نضيف على ذلك الوضع الشاذ الذي عاشته الثقافة العربية في الجزائر تحت نير الاستعمار، الأمر الذي انعكس في القصة وفي مجالات أخرى وفنون كثيرة مثل: الرواية و المسرحية، ...الخ. التي لم تكن معروفة في الأدب العربي القديم بصورتها الجديدة وبمفاهيمها وتقاليدها عند العرب.

وقد تأخر ظهور القصة لأسباب كثيرة ومختلفة في مقدمتها الاستعمار الذي وضع الثقافة القومية في وضع شل فاعليتها وحركتها وقد كان اضطهاد اللغة العربية ومحاولة القضاء عليها من طرف الاستعمار الفرنسي عاملا أساسيا في تخلف الأدب وتأخر القصة.

أما القلائل الذين فهموا القصة ووظيفتها فكان فهمهم لها أيضا فهما ساذجا يتماشى مع ما ذكرت من مفهوم الأدب ولا يعنى إلا باللغة والأسلوب فقط.

وهناك عوامل أخرى عاقت ظهور القصة وتطورها هي التقاليد وأبرزها ما يتعلق بوضع المرأة في المجتمع إلى جانب هذا لابد من الإشارة إلى بعض المؤشرات الأخرى التي أثرت في القصة بشكل واضح كصلة الجزائر بالشرق والغرب، كذلك يمكن أن تلعب الترجمة أثر من الآثار الأدبية الغربية إلى العربية لو وجدت دورا بارزا في حياة الفكر والأدب الجزائري وكان يمكن أن تساعد على ظهور القصة مبكرا خاصة وأن فن القصة وليد الغرب .

كما لابد لنا أن نذكر أهم عنصر كان له الأثر الكبير في ظهور القصة الجزائرية وأعني به القصص الشعبي ويتمثل هذا التأثير فيما ظهر في القصة الجزائرية من التركيز على الحدث دون الشخصية القصصية وفي الاستشهاد بالشعر والمزج بينه وبين النثر.

ثانيا: تيمات القصة الجزائرية

جاءت مضامين القصة القصيرة في الجزائر لتعكس الواقع الجزائري بمختلف مراحله التاريخية؛لأن الأدب عموما وليد البيئة يعكس صورها و يعبر عن مظاهرها،و القصة القصيرة الجزائرية الحديثة شأنها شأن باقي الأجناس الأدبية الأخرى تأثرت بالواقع و المحيط الجزائريين،و أثرت فيهما و عكست الكثير من مظاهر الفكر الجزائري،و بلورت الكثير من الأفكار و العادات السائدة في المجتمع على مر مراحل تطور المجتمع الجزائري.

و من أبرز المضامين التي عالجتها القصة الجزائرية الحديثة نجد:

المضمون الوطني: كانت الثورة التحريرية الجزائرية الكبرى و لا زالت منهلا لا ينضب و معينا ألهمت الشعراء و القصاصين و الروائيين و الفنانين،بتمجيد الكفاح الوطني و تصوير بطولات الشعب و صموده أمام قوى المحتل الغاشم،و رؤى المستقبل المخضب بالخلاص و الانتصار على البؤس و القهر و الظلم، و ترسيخ قضايا التحرر و الاستقلال، ومن القصاصين الذين رسموا هذا الاتجاه نجد الطاهر وطار في (الشهداء يعودون هذا الأسبوع)،عبد الحميد بن هدوقة في(الأشعة السبعة)،و أحمد منور في(عودة الأم)، و مصطفى فاسي في(عندما تكون الحرية في خطر)،و عثمان سعدي في(إجازة ابن الثوار)،و غيرهم من الكتاب الذين سجلوا مآثر الثورة الجزائرية،و ما أحرزته من انتصارات،و ما أفرزته من نتائج.

ولقد أثرت الثورة التحريرية في مضمون القصة بما لا يقل عن أثرها في الشكل، فقد تقلصت الموضوعات الإصلاحية،و خلفتها موضوعات جديدة استلهمت الواقع،فكثر وصف صمود الشعب الجزائري أمام قوى المستعمر،و تصوير بطولات المناضلين و التعبير عن الحياة الاجتماعية الجديدة.

المضمون الاجتماعي: احتل المضمون الاجتماعي في القصة القصيرة الجزائرية حيزا كبيرا قبل الاستقلال وبعده،فكان الكتاب يسجلون الحياة الاجتماعية الجزائرية بكل جوانبها،و يرصدون الواقع المعاش للشعب الجزائري،وما يعانيه من الفقر و البؤس و الحرمان،و ما يتكبدونه جراء مشاكل الزواج و السكن و العمل والهجرة و الحياة اليومية البائسة للفرد ، وكلها تؤول على محور واحد هو محور الفقر، فما هذه المشاكل الاجتماعية إلا ثمرة من ثمرات الفقر الجاثم،و من الكتاب الذين برزوا في رصد المضامين الاجتماعية نجد:أحمد رضا حوحو،و عبد الحميد بن هدوقة.

المضمون الوجداني: يعد من أكثر المضامين بروزا في القصة المعاصرة على عكس بدايات الكتابة القصصية مع كتاب الحركة الإصلاحية الذين أهملوا الموضوعات العاطفية الذاتية؛ لأن تركيزهم كان على إصلاح المنظومة الأخلاقية التي قوض المحتل الفرنسي دعائمها.و قد لجأ بعض الأدباء إلى الرمز و الإيحاء أو التوقيع بأسماء مستعارة حينما أرادوا التعبير عن أحاسيسهم العاطفية.

و قد تبلورت مع رواد القصة في الجزائر و على رأسهم الكاتب أحمد رضا حوحو،و تتجلى خاصة في مجموعته(صاحبة الوحي)،وبالتحديد في قصص(صاحبة الوحي)،و(القبلة المشؤومة)،و(فتاة أحلامي)،و(جريمة حماة)،و(خولة)،و هي قصص تدور حول أحداث عاطفية غاية في الجرأة و المعالجة.

المضمون الإنساني: و يتمثل في تلك القصص التي تزخر بتصوير النماذج الإنسانية لتشكل هاجسا حقيقيا،و محورا واضحا داخل النص القصصي،و يعد أحمد رضا حوحو أبرز كاتب جزائري أولى اهتماما متميزا بالطبيعة البشرية في عصره،فقد التقط موضوعات من واقع الحياة البشرية بروحه الخفيفة،و دقة ملاحظته، و عمق موهبته ،و اتساع ثقافته،و مقدرته على تحويل إحساساته الإنسانية إلى أحداث فنية جميلة و متنوعة.

المضمون الديني: و هي تلك القصص التي تعالج بعض القضايا الدينية،أو تصور رجال الدين و حياتهم وصراعهم بين الاستقامة و الانحراف.

ثالثا: مراحل تطورها قبل الاستقلال:

يمكن تمييز مراحل خمس شكلت تطور القصة في الجزائر:

1_ مرحلة المقال القصصي : و هي مزيج من المقالة و الرواية و المقامة و الحكاية مرحلة اتسمت بالوصف ونقل الواقع كما هو شخصياتها ثابتة و نبرتها وعظية إرشادية إصلاحية.

2_ مرحلة الصورة القصصية: تميزت هذه المرحلة برسم الحدث بطريقة مسطحة و غياب الإيحاء في السرد و سيطرة الوعظ و الاستطراد في ذكر التفاصيل و الجزئيات،و عدم تحليل الواقع.و ظهرت الصورة القصصية في كتاب" الإسلام في حاجة إلى دعاية و تبشير"لمحمد السعيد الزاهري،و أول صورة قصصية ظهرت خلال المرحلة الأولى،هي صورة"عائشة"التي تصدرت مواد ذلك الكتاب.

3_ مرحلة القصة الاجتماعية: و فيها عمد الكتاب على رسم صورة المجتمع الجزائري،و تصوير معاناته اليومية الطافحة بمظاهر الفقر و البؤس و الجوع،و المترعة بمشاكل الحياة كالبطالة و الرشوة و الهجرة وغيرها، و أبرز من يمثلها"أحمد رضا حوحو"و الطاهر وطار،و عبد الحميد بن هدوقة.

4_ مرحلة القصة المكتوبة خارج الوطن: و هي التي كتبها الأدباء الجزائريون المقيمون خارج الوطن،وفي بلدان عربية ساعدهم وجودهم هناك على الاحتكاك بالأدباء العرب،و التأثر بما ترجم إلى العربية.

5_مرحلة القصة الاجتماعية/السياسية منذ الاستقلال: و هي مرحلة النضج الفني للقصة الجزائرية، ومن أبرز ممثليها الطاهر وطار،و مرزاق بقطاش،و عبد الحميد بن هدوقة.

و تعد القصة القصيرة من أكثر الأشكال الأدبية تطورا و ازدهارا؛انطلاقا من شكلها التقليدي لدى اليونان ذي الطابع الأسطوري الحافل بالماورائيات و المغامرات الشائقة و الغرائب الخارقة،و العامر بالسحر والغيبيات و المبني على حدث بسيط يتسارع و ينمو بشكل كرونولوجي مسطح يتكون من بداية و وسط ونهاية، من هذا الشكل في صورته الأولى و الذي أدى إلى ظهور النثر القصصي اليوناني و من بعده الروماني إلى أشكالها المختلفة المتعددة التي عرفتها عبر العصور،إلى ما أطلق عليه في السنوات الأخيرة باللاشكل الذي يضم كل تلك النزاعات الجديدة.

خاتمة:

و خلاصة القول: إن القصة الجزائرية أخذت قوتها و صلابتها من أحداث حرب التحرير التي استمرت تمد ظلالها على كل الكتابات القصصية،"حتى أنك لا تقرأ مجموعة قصصية إلا و قد أُفردت بعض قصصها لحرب التحرير مباشرة،أو ربط فيها الواقع الجديد للقصة و واقع حرب التحرير بخيط رهيف "،فمن ثورة 1871مرورا بانتفاضة 1945 حتى ثورة 1954 و قبيل استقلال الجزائر هناك خطوط متقاطعة ساهمت بشكل أو بآخر في بلورت الاتجاهات التي تجلت فيها الكتابات الجزائرية باللغة العربية،أو باللغة الفرنسية قبل و أثناء حرب التحرير.

د. أمينة أونيس